الباب السادس

التحليل النفسى

عند ما نستخدم لفظ "التحليل النفسى" فاننا نقصد الى أحد معنيين :

الأول ، الطريقة التى اتبعها "فرويد" لعلاج مرضاه والتى أحلها محل التنويم المغناطيسى فى الوصول الى الحوادث المدفونة فى أعماق النفس . وقد استخدم "فرويد" هذه التسمية لكى يؤكد ناحية "التحليل" من جانب المعالج ، فهو يبحث ما يقوله المريض و "يحلله" لكى يصل الى ما يعتبره أساسا للأعراض العصبية .

والثانى ، مجموع النظريات التى وصل اليها فرويد فيما يتعلق بتكوين نفس الانسان ، والتى كان الوصول اليها نتيجة لاتباع الطريقة السالفة ، فما كشفه فرويد من العلل النفسية أثناء عملية التحليل لمختلف المرضى ، جعله أساسا لبناء "علم" التحليل النفسى الذى يختلف عن علم النفس التقليدى .

طريقة التحليل النفسى :

وطريقة التحليل النفسى تتلخص فى أن يطلب الطبيب الى مريضه أن يترك نفسه للتداعى ، فلا يحاول أن يفكر فى شىء معين ، بل يقول كل شىء حيث شاءت . وأن يذكر كل ما يمر بخاطره وهو فى هذه الحالة الطليقة من كل قيد ، ويعبر عن خطراته التى تنساب بلا عائق تعبيرا حرا ، فلا يترك منها تافها ، أو سخيفا ، أو متناقضا ، أو غير لائق ، أو كريها ، إلا وذكره كما هو وهو يمر بخاطره ، فالمريض يترك أفكاره تتداعى "تداعيا طليقا"(١) لا تتدخل "إرادته" فيه بحال ما ، إذ يقلع عن كل محاولة لتوجيهها أى وجهة خاصة . والمريض — والطبيب معه بطبيعة الحال — يلاقى عنتا كبيرا فى مبدأ الأمر . لأن التداعى الطليق يتطلب منه أن يهجر ما تعود فى مختلف أدوار حياته من توجيه أفكاره توجيها خاصا ،

(١) Free Association

ثم انها تتطلب منه أن يعبر باللفظ عن كل مايخطر له وهو أمر عسير إذا ذكرنا أننا "نلتقى" و "نتخير" ما نستطيع التعبير عنه لغيرنا من الناس ، فهناك ما لا نستطيع أن نبوح به الا لخاصة الخاصة من أصفيائنا ، وهناك ما لا نستطيع أن نذكره لمخلوق ، فما بالك اذا طلب الينا أن نبوح بكل مايرد على خاطرنا للطبيب بدون محاولة لترتيب الكلام أو تنسيقه أو إدخال أى تعديل أو تحوير على الكيفية التى يتوارد بها .

والمريض لا يصل الى الحالة المطلوبة من السلاسه والانطلاق الا بعد جهد جهيد ، اذ يجد كثيرا من المقاومة التى يشعر هو بها ، ويدركها المحلل ، اذ تحول نفسه بينه وبين الانطلاق المطلوب فى الأفكار . وكثيرا ما ينبهه المحلل الى أنه يعانى هذه المقاومة ، ويشجعه على الافضاء والتغلب على العقبات النفسية التى تحول دونه ، ويظل به يتخطيان معا هذه العقبات حتى يصلا — بعد وقت طويل — الى العناصر الانفعالية القديمة التى تفسر الأعراض الحديثة فى حياة المريض ، وميزة التحليل النفسى على التنويم المغناطيسى أن المريض يتتبع بنفسه كل ما يقوله ، بعكس الحال فى التنويم المغناطيسى ، فيكون من اليسير عليه نسبيا أن يدرك المعنى الذى يكمن وراء الاعراض وأن يفهمها فى ضوء جديد هو ضوء الحوادث الماضية من حياته ، فيواجهها مواجهة مبنية على التنور والفهم والمعرفة . كل ذلك والمعالج يأخذ بيده حتى يصل إلى الهدوء والاستقرار اللذين يميزان الحياة العقلية السليمة .

وتستغرق عملية التحليل عادة شهورا عديدة قبل أن يصل المعالج إلى الأسس البدائية للأعراض الحالية . والجلسات الأولى من التحليل تُستنفد عادة فى أحكام الاتصال بين المريض والطبيب وفى تمرن المريض على شىء من التحرر من العوامل التقليدية فى تعبيره ، وبالرغم من أن المريض يتحدث طوال هذه الجلسات عن أعراضه وعن نفسه فان ما يقوله يكون عادة قليل الجدوى ، لأنه لا يخرج عن محاولات فى أغلبها "شعورية" لسرد حوادث أو ذكريات يخيل اليه أنها ذات علاقة بحالته . وكثيرا ما يأتى المريض وعنده تشخيص "كامل" يعرضه على الطبيب ، وعلى هذا الأخير أن يصرفه شيئا فشيئا عن التمسك بتشخيصه ، ويقنعه أن من واجبه يقلع عن الإيمان نظريته ، وأن يبدأ من جديد وهو خالى الذهن . ويمر وقت

طويل قبل أن يبدأ المريض، فى الافضاء بما هو ذو قيمة فى تشخيص حالته . ويصحب ذلك عادة مظاهر من المقاومة لا تخطئها عين المجرّب . فمن نوبات ضيق تنتاب المريض فيغادر حجرة التحليل مندفعا إلى الخارج ، إلى ثورات على الطبيب ، إلى فترات يكاد ذهنه يخلو فيها من كل فكرة ويكاد لسانه لا ينطق بكلمة . إلى غير ذلك من علامات قد تكون أقل درجة كالتنهد والاضطراب واحمرار الوجه وتهدّج الصوت . وهذه كلها علامات لا تخطئ، تدل على وجود مقاومة فعالة تحول بين المريض وبين " الافضاء " دلالةً على أن التحليل قد وصل إلى مناطق الحرج فى النفس ولمس المواضع الحساسة .

والذى يحصل عادة أن تستمر المقاومة وقتا يطول أو يقصر ، ثم لا يلبث المريض أن يجد عنده رغبة شديدة ملحة فى الافضاء، لايستطيع مقاومتها ، فيحاول الاتصال بطبيبه فى التو ، مهما كان الوقت غير مناسب فاذا لم ينجح أصابه الضيق ولبث على أحر من الجمر فى انتظار ساعة المقابلة .

وينتاب المريض فى أثناء التحليل حالات تلفت النظر فهو يتراوح بين التعلّق الشديد بالمحلل وبين النفور الشديد منه .

وينتهى الأمر بنوع من التعلق يشبه تعلق الطفل بأمه أو بأبيه ، فكأن المعالج قد حل من نفس المريض ذات المحل الذى كان يحل فيه الأب أثناء طفولته وبالرغم مما لهذا " الاحلال " (١) من القيمة الكبيرة فى العلاج ، فانه مع تقدم التحليل يصبح نوعا من " المرض " يجب أن يتخلص منه المريض فى الوقت المناسب ، وإلا تعذر عليه أن يقف على قدميه ويواجه متاعب الحياة وحده ، وأصبح كالطفل يعتمد فى كل كبيرة وصغيرة على هذا الأب البديل ولايستطيع عنه بعادا .

والطبيب يعمل من جانبه على إفهام المريض موقفه الجديد، وعلى تدعيم ذاتيته المستقلة ، فإذا وصل الى هذا ، فقد بدأ يسير نحو حياة نفسية هادئة مستقرة .

ويشمل التحليل النفسى، تحليل الأحلام التى يراها المريض فى منامه ، وخصوصا تلك التى يراها أثناء فترات العلاج أو تلك التى يتكرر ورودها .

---

(١) Transference

نظرية التحليل النفسي :

هذا عن التحليل النفسي كطريقة ، أما نظرية التحليل النفسي فهي مشتقة من الصورة التي كوّنها فرويد وغيره من الباحثين ، عن النفس ، كنتيجة لاستخدام هذه الطريقة وتقوم هذه الصورة على عدة مبادئ سيرد تفصيلها في الأبواب التالية ونجملها في هذا الباب .

والمبدأ الأساسي الذي تقوم عليه هذه النظرية هو مبدأ "الحتمية السيكولوجية"(١) ويقرر هذا المبدأ أنه لا بد لكل حادثة نفسية من علة ترجع إليها ، فليس هناك من محتويات العقل ما يمكن أن ينسب إلى الصدفة العارضة ، بل إن لكل منها سببا يرجع إليه .

فما نسميه "فلتات اللسان" ، وما يظهر على الشخص من فزع لرؤية حشرة أو حيوان صغير ، وما يميل إليه أو يكرهه من الألوان أو الأشكال ونوع الأشخاص الذين ينجذب إليهم أو ينفر منهم ، والمواقف التي يرتاح اليها أو يضجر منها . . كل هذه يكون سلوك الشخص فيها محتّما لا يستطيع أن يحيد عنه ، فهو محدود من قبل بماضي حياته وبما مر عليه من حوادث سابقة . أي إن تاريخه القديم يحدد الصورة التي تحدث بها استجاباته للمواقف الجديدة .

فاذا تتبعنا سلسلة الحوادث المرتبطة بهذه الكيفية فانها ترجع بنا إلى عهد الطفولة حيث نجد العلل الأساسية لاتجاهات السلوك الجديد .

وهـــذه هي النظرة التي تتسق مع استخدام طريقة التحليل النفسي لأنه لولا هـذا الارتباط « المـادي » بين محتويات العقل القديمـة والحديثة لمـا أمكن الوصول الى العلل الأساسية في حالات المرضى بأنواع الاضطراب العصبي .

وقد استتبع الأخذ بهـــذا المبدأ مع دراسة مستلزماته الأخذ ببضعة مبادئ فرعية .

الأول : مبدأ الديناميكية أو الفاعلية النفسية . فنظرة التحليل النفسي للنفس نظرة "ديناميكية" وليست بنظرة "استاتيكية" . وبعبارة أخرى فان النفس تشمل

---

(١) Psychological Determinism

« قوى » محركة فعالة لا مجرد صور ساكنة ، والكُمُون فى التحليل النفسى ليس معناه الخمود . فهذه القوى دائمة الضغط والتفاعل ، وليس هناك ظاهرة نفسية إلا وهى نتيجة تغلُّب إحداها على الأخرى ، والمغلوبة لا تخلى الميدان إلا وهى تبدأ فى التمهيد لوصولها إلى غايتها بطريقة ما .

فالصورة العامة للنفس صورة حركة وتدافع دائمين لا سكون فيها إطلاقا ، وما قد يظهر من السكون إنما هو صورة سطحية خدَّاعة يقصد بها التعمية .

فالنسيان مثلا ليس مجرد سقوط بعض العناصر من « الذاكرة » وإنما هو محاولة إيجابية من العقل لاستبعاد هذه العناصر وإبقائها «تحت الحفظ» لأسباب تتعلق بالسلام والانسجام النفسى العام .

وفلتات اللسان التى نقولها ونندم عليها ، ليست مجرد كلمات صدرت «عفوا» وإنما هى قد دُفعت دفعا إلى نطقنا بواسطة القوى اللاشعورية لتؤدى غرضا ترمى إليه هذه القوى .

فهذه الصورة الحركية هى صورة العقل فى التحليل النفسى ، ولعل الحركة الدائمة فى الجسم تقابل هذه الحركة الدائمة فى العقل كفعل القلب والغدد والخلايا المختلفة فى الجسم ... الخ .

والثانى : مبدأ التوازن . فلا تنشأ فى النفس قوة أو نزعة إلا وتنشأ معها بالضرورة قوة أو نزعة مضادة ، ويكون سلوك الإنسان ناتجا عن مُحصِّلة النزعتين . ولعل هذا من أهم المبادئ التى أخرجها لنا التحليل النفسى . ولكى ندرك هذا المبدأ نأخذ مثالا يمر بنا جميعا فى حياتنا اليومية ، فالشخص المتعلق بعائلته ، الشديد المحبة لأبويه وزوجته وأولاده شخص قد حمَّل نفسه فى ذات الوقت أعباء ومسئوليات نفسية جسيمة ، تجعل منه بدون أن يشعر عدوا لأولئك الذين يحبهم . ففى هذه المحبة تكاليف تقضى عليه أن يحرم نفسه من كثير من ملذاته وأغراضه ، وينكر عليها ما ترغب فيه مما تسمح به ظروفه ، فضلا عما يصيبه بالضرورة من هموم وأحزان لما يصيبهم . فهل ترضى نفسه بهذا الحال ؟ أم تثور دونه ؟ الواقع أن الإنسان قد يحتمل كل ذلك بكل نفس طيبة

فى الظاهر ، ولكنه فى الباطن ، البعيد عن متناول شعوره ثائر على هذه القيود التى قيد بها نفسه ، وهذه الثورة كثيرا ما تظهر فى صور متعددة ؛ ومعنى ذلك أن الإنسان حيث يحب بشعوره فإنه يكره من أعماق اللاشعور ؛ لأن محبة الغير كما يفهمها الشعور ، تتناقض مع الأنانية المطلقة وهى مبدأ اللاشعور . وهذه النزعة للتناقض أو الثنائية [١] عامة فى سلوك الإنسان . ومما يلفت النظر أن الشبه فى هذه الحالة كبير أيضا بين العقل كما يصوره التحليل النفسى و بين الجسم كما يصوره علم وظائف الأعضاء . فالعمليات الحيوية للجسم يحكمها دائما مبدءان متضادان يعمل كل منهما فى اتجاه . فعضلات القلب تغذيها أعصاب فاعلة وأخرى معطلة ، وعمل القلب نتيجة أو محصلة للأثر الناتج منهما ، وكذلك نجد فى إفرازات الغدد أمثلة كثيرة للتضاد أو التقابل الذى يؤدى إلى الاتزان و يسمح بكثير من المرونة فى الاستجابة للمواقف المتعددة .

والثالث : مبدأ التحول . فالطاقة النفسية الديناميكية طاقة قابلة للتحول من مجرى إلى آخر ، وفرويد يطلق على مجموع الدوافع اسم «الطاقة الغريزية» [٢] و يعتبر أن هذه الطاقة تتحول من اتجاه إلى آخر فى حياة الإنسان . وهذه القدرة على التحول هى أساس التطور فى الحياة النفسية . فهى التى تجعل من الممكن أن يمر الطفل من دور "الإشباع الذاتى" [٣] حيث تلتمس أعضاؤه وحواسه لذات هذه الأعضاء والحواس ، الى دور "النرجسية" [٤] حيث تتركز اللذة فى ذات الشخص فيصبح موضع الحب والإعجاب من نفسه الى دور "المحبة الخارجية" [٥] . وهكذا ، ثم إن هذه القدرة على التحول هى التى تسمح بإبدال الأشخاص او الأشياء محل بعضهم أو بعضها البعض فى توجيه المحبة أو الكراهية ، و بذلك فانها تسمح بحدوث "الاعلاء" [٦] وهو توجيه الطاقة الغريزية نحو الغايات الاجتماعية من خلقية وثقافية ، و بعبارة أخرى فإن هذه القابلية للتحول هى أساس الرقى الإنسانى و إن كانت فى الوقت نفسه أساس المتاعب النفسية التى تحل بالأفراد والجماعات ، لأن تحول الطاقة هو أساس ظهور الأعراض المرضية .

---

(١) Ambivalence (٢) Libido (٣) Auto-erotism

(٤) Narcissism (٥) Object Love (٦) Sublimation .